

﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتَنِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قَيْمًا مِثْلَ دِينِ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ 2 شوال 1442 هـ

عِبَادَ اللَّهِ: إِنَّ نِعْمَةَ تَنوعِ الْعِبَادَاتِ تَشْتَمِلُ عَلَى حِكْمِ رَبَّانِيَّةٍ، فَالطَّرِيقُ إِلَى اللَّهِ وَاحِدَةٌ، وَلَكِنَّهَا مُتَعَدَّدَةٌ وَمُتَنَوِّعَةٌ الْمَنَاسِكِ وَالْعِبَادَاتِ؛ وَذَلِكَ لِاخْتِلَافِ اسْتِعْدَادَاتِ الْعِبَادِ، وَتَخْفِيفًا عَنْهُمْ، وَتَيْسِيرًا بِمَا يَتَلَاءَمُ مَعَ قُدْرَتِهِمْ فِي الْمُنَشِطِ وَالْمُكْرَهِ؛ وَذَلِكَ لِحِكْمِ بِالِغَةِ، وَمِنْهَا:

الْأُولَى: تَنوعُ الْفَرَائِضِ وَالْوَاجِبَاتِ اخْتِبَارًا وَابْتِلَاءً لِلْمُؤْمِنِ عَلَى غَلْبَتِهِ لِهَوَاهُ؛ حَيْثُ أَنَّ انْتِقَالَهُ مِنْ عِبَادَةٍ إِلَى أُخْرَى بِحَسَبِ وَقْتِ كُلِّ مِنْهَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ عَبْدٌ حَقِيقِيٌّ لِلَّهِ.

الثَّانِيَةُ: تَنوعُ الْعِبَادَاتِ بِمَقَاصِدِهَا يُحَقِّقُ حِكْمَةَ رَبَّانِيَّةً وَمَقْصِدًا تَرْبَوِيًّا. فَالْمُتَأَمِّلُ فِي الصَّلَاةِ، وَالزَّكَاةِ، وَالصَّوْمِ، وَالْحَجِّ يَجِدُ أَنَّ بَعْضَهَا بَدَنِيٌّ، وَبَعْضُهَا مَالِيٌّ، وَبَعْضُهَا مُرَكَّبٌ مِنْهُمَا، وَكَذَا فِي ثَمَرَاتِهَا مُتَنَوِّعَةٌ. فَفِي الصَّلَاةِ: قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾، وَفِي الزَّكَاةِ: قَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾، وَفِي الصِّيَامِ: قَالَ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، وَفِي الْحَجِّ: قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِيَشْهَدُوا مَنَفَعًا لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ﴾.

الثَّالِثَةُ: تَنوعُ الْعِبَادَاتِ بِمَنَاسِكِهَا وَطُرُقِ أَدَائِهَا فِيهِ رِعَايَةٌ لِظُرُوفِ الْمُكَلِّفِينَ، وَرَفْعٌ لِلْحَرَجِ عَنْهُمْ، وَتَيْسِيرٌ وَتَسْهِيلٌ لَهُمْ. فَمَنْ عَجَزَ بِمَرَضٍ أَوْ سَفَرٍ أَوْ فَقْرٍ أَوْ ضَعْفٍ عَنْ عِبَادَةٍ، وَجَدَ أَجْرَهُ فِي رُخْصَةٍ وَعِبَادَةٍ أُخْرَى، قَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾. وَمِنْ ذَلِكَ مُرَاعَاةُ

الإسلام أحوال الفقراء الذين ظنوا سبق الأغنياء لهم بفضول أموالهم. أخرج مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه، أن ناساً من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله، ذهب أهل الدثور بالأجور، يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون بفضول أموالهم، قال: «أوليس قد جعل الله لكم ما تصدقون؟ إن بكل تسبيحة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليل صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن منكر صدقة، وفي بضع أحدكم صدقة»، قالوا: يا رسول الله، أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: «أرأيتم لو وضعها في حرام، أكان عليه فيها وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر».

الرابعة: تنوع العبادات يحفز المسلم على أن يستغرق حياته في التَّنْقُلِ بَيْنَ بَسَاتِينِ الْعِبَادَةِ. فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا اسْتَعْمَلَهُ فِي الْأَوْقَاتِ الْفَاضِلَةِ بِفَوَاضِلِ الْأَعْمَالِ، وَإِذَا مَقَّتَهُ اسْتَعْمَلَهُ فِي الْأَوْقَاتِ الْفَاضِلَةِ بِسَيِّئِ الْأَعْمَالِ.

الخامسة: تنوع العبادات فيه مدافعة لبواعث السامة والملل، وفيه تنشيط للنفس؛ مما يفضي إلى استشعار المتعة واللذة في العبادة، وصفاء الروح، والأنس بالله تعالى.

السادسة: تنوع العبادات فيه فتح لميدانٍ فسيحٍ من العمل. فمن الناس من يفتح له في عملٍ دون غيره، وكلٌ ميسرٌ لما خلق له، والناس يتفاضلون في هذا الباب تفاضلاً عظيماً.

أيها المسلمون: لقد دعا الإسلام إلى التخفيف والتيسير، ومن ذلك:

الأول: مراعاة أحوال المكلفين عامةً. أخرج الشيخان عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: جاءت امرأة من خثعم عام حجة الوداع، قالت: يا رسول الله، إن فريضة الله على عباده في الحج أدركت أبي شيخاً

كَبِيرًا، لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَسْتَوِيَ عَلَى الرَّاحِلَةِ، فَهَلْ يَقْضِي عَنْهُ أَنْ أَحْجَّ عَنْهُ؟ قَالَ: «نَعَمْ»، وَأَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا مَرَضَ الْعَبْدُ، أَوْ سَافَرَ، كُتِبَ لَهُ مِثْلُ مَا كَانَ يَعْمَلُ مُقِيمًا صَحِيحًا».

الثَّانِي: مُرَاعَاةُ أَحْوَالِ الْمُكَلَّفِينَ مِنَ النِّسَاءِ. فَالْمَرْأَةُ تَعْجُزُ عَنِ الْقِيَامِ بِبَعْضِ أَعْمَالِ الرِّجَالِ، فَزُتِبَ عَلَى أَعْمَالِهِنَّ أَجْرٌ عَظِيمٌ؛ تَقْدِيرًا لِدَوْرِهِنَّ، وَقِيَمَةً لِأَعْمَالِهِنَّ. أَخْرَجَ أَحْمَدُ فِي «مُسْنَدِهِ»، وَصَحَّحَهُ عَلَّامَةُ مِصْرَ أَحْمَدُ شَاكِرٌ رَحِمَهُ اللَّهُ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا صَلَّتِ الْمَرْأَةُ خَمْسَهَا، وَصَامَتْ شَهْرَهَا، وَحَفِظَتْ فَرْجَهَا، وَأَطَاعَتْ زَوْجَهَا، قِيلَ لَهَا: ادْخُلِي الْجَنَّةَ مِنْ أَيِّ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ شِئْتَ».

عِبَادَ اللَّهِ: إِنَّ فَضَائِلَ الْعِبَادَاتِ كَثِيرَةٌ وَمُتَنَوِّعَةٌ، وَمِنْ ذَلِكَ:

الأوَّل: أَنَّهَا سَبَبٌ فِي مَحْوِ الذُّنُوبِ وَالْخَطَايَا. أَخْرَجَ مُسْلِمٌ عَنْ عَمْرِو بْنِ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ عُثْمَانَ، فَدَعَا بِطَهْوَرٍ، فَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «مَا مِنْ امْرِئٍ مُسْلِمٍ تَحْضُرُهُ صَلَاةٌ مَكْتُوبَةٌ، فَيُحْسِنُ وُضُوءَهَا وَخُشُوعَهَا وَرُكُوعَهَا، إِلَّا كَانَتْ كَفَّارَةً لِمَا قَبْلَهَا مِنَ الذُّنُوبِ، مَا لَمْ يَأْتِ بِكَبِيرَةٍ، وَذَلِكَ الدَّهْرُ كُلُّهُ».

الثَّانِي: أَنَّهَا تَحْقِيقٌ لِلنَّمَاءِ. أَخْرَجَ مُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ، وَمَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ».

الثَّالِثُ: أَنَّهَا سَبَبٌ فِي نَيْلِ رَحْمَةِ اللَّهِ الَّتِي هِيَ سَبَبٌ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ. أَخْرَجَ الشَّيْخَانِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «الْعُمْرَةُ إِلَى الْعُمْرَةِ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُمَا، وَالْحَجُّ الْمَبْرُورُ لَيْسَ لَهُ جَزَاءٌ إِلَّا الْجَنَّةُ»، وَأَخْرَجَ الشَّيْخَانِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَنْ يَدْخُلَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ الْجَنَّةَ» قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ مِنْهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ».

الرَّابِعُ: أَنَّهَا تُجِيرُ الْمُسْلِمَ مِنْ عَذَابِ النَّارِ. أَخْرَجَ التِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ، وَصَحَّحَهُ الْعَلَّامَةُ الْأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُمُ اللَّهُ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا يَلْبِغُ النَّارَ رَجُلٌ بَكَى مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ تَعَالَى حَتَّى يَعُودَ اللَّبَنُ فِي الضَّرْعِ، وَلَا يَجْتَمِعُ غُبَارٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَدُخَانُ نَارِ جَهَنَّمَ».

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ التَّقْوَى، فَمَنْ اعْتَصَمَ بِاللَّهِ أَيْدُهُ وَهَدَاهُ، وَمَنْ لَجَأَ إِلَيْهِ كَلَاءَهُ وَرَعَاهُ، وَالْحَصِيفُ يُحَاسِبُ نَفْسَهُ، وَيَسْتَذَكِّرُ ذَنْبَهُ، وَيَسْتَغْفِرُ رَبَّهُ، وَيُرَاجِعُ أَعْمَالَهُ، فَمَنْ الْخَيْرُ يَزِدَادُ، وَعَنِ التَّقْصِيرِ يُقْلَعُ، فَالْعَبْدُ لَا يَزَالُ عَلَى هُدَاهُ مَا كَانَ لَهُ وَاعِظْ مِنْ نَفْسِهِ، وَكَانَتْ الْمُحَاسَبَةُ مِنْ هِمَّتِهِ، وَمَا حَقِيقَةُ الْأَعْمَارِ إِلَّا الْأَعْوَامُ، وَمَا الْأَعْوَامُ إِلَّا أَيَّامٌ، وَمَا الْأَيَّامُ إِلَّا أَنْفَاسٌ، وَإِنَّ عُمْرًا يُقَاسُ بِالْأَنْفَاسِ لَسَرِيعُ الْإِنْصِرَامِ.

عِبَادَ اللَّهِ: إِنَّ حَوَادِثَ الدَّهْرِ عِدَّةٌ، وَعَبْرَ الْأَيَّامِ جَمَّةٌ، مَدَائِنُ تُعْمَرُ، وَأُخْرَى تُدْمَرُ، يُصْبِحُ ابْنُ آدَمَ مُعَافَى فِي صِحَّتِهِ، ثُمَّ يُمْسِي فِي أَطْبَاقِ الثَّرَى، أَخْرَجَ التِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَهَ، وَصَحَّحَهُ الْعَلَّامَةُ الْأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُمُ اللَّهُ، عَنْ قَيْسِ بْنِ أَبِي حَازِمٍ، قَالَ: سَمِعْتُ الْمُسْتَوْرِدَ أَخَا بَنِي فَهْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «مَا مَثَلُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ، إِلَّا مَثَلُ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ فِي الْيَمِّ، فَلْيَنْظُرْ بِمَ يَرْجِعُ».

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: إِنَّ تَغْيِيرَ الْأَحْوَالِ، وَانْقِضَاءَ الْأَجَالِ، وَانْقِطَاعَ الْأَعْمَالِ وَالْأَمَالِ، وَمَا يَحْدُثُ فِيهَا مِنَ الْفَوَاجِعِ وَالْأَهْوَالِ، كُلُّ ذَلِكَ يُشْعِرُ بِعَجْزِ الْمَخْلُوقِ وَضَعْفِهِ، وَشِدَّةِ افْتِقَارِهِ إِلَى رَبِّهِ، فَالدُّنْيَا مَحْفُوفَةٌ بِالْأَنْكَادِ وَالْأَكْدَارِ، مَشْحُونَةٌ بِالْمَتَاعِ، مَمْلُوءَةٌ بِالْمَصَائِبِ، طَافِحَةٌ بِالْأَحْزَانِ وَالْأَكْدَارِ، قَالَ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾. فَالْإِنْسَانُ فِيهَا مُعَرَّضٌ لِلْأَمْرَاضِ وَالْأَسْقَامِ، الْأَحْوَالُ فِيهَا إِمَّا نِعَمٌ زَائِلَةٌ، وَإِمَّا بَلَايَا نَازِلَةٌ، وَإِمَّا مَنَايَا قَاضِيَةٌ، فَإَيَّاكُمْ وَالْإِغْتِرَارَ بِزَهْرَتِهَا! فَقَدْ اغْتَرَّ قَوْمٌ قَبْلَكُمْ؛ فَأَوْرَدَهُمْ مَوَارِدَ الْعَطْبِ، أَبْهَرَتْهُمْ بِرَوْنِقِهَا فَمَا أَفَاقُوا إِلَّا وَهُمْ فِي عِدَادِ الْمَوْتَى.